تـمّ تحميل هذا الملفّ من مكتبة الأديب الرّاحل رمضان لاوند | جميع الحقوق محفوظة © www.RamadanLawand.com

أوليات الفكر الثوري عند العرب

الحلقة الثانية

حاولنا في الحلقة الأولى السابقة أن نسلط الضوء على مظاهر الانهيار في مستوى النخبة أولاً، وعلى التنازع القائم بين هذه النخبة بالذات والقواعد الشعبية العربية ثانياً ، لكن طريقتنا في العرض قد تميزت بالاختصار الشديد واللمحات السريعة . وقد يكون من الخير أن نختار لمحة من لمحاتها المتعددة لنوسعها تفصيلاً وتيسيراً في حدود ما تتسع له المقالة السريعة .

نحن نؤمن أن التاريخ هو صنع النخبة من الرجال . فهم القادة والمرايا التي تنعكس عليها صور القواعد الشعبية . وهم بالتالي القوة الإيجابية المحركة لموكب التاريخ.

لكن النخبة هذه تعيش في دائرة مفرغة وتدور حول نفسها حتى تسقط من الإعياء والتعب إذا لم يتحقق بينها وبين قواعدها الشعبية حوار فاعل إيجابي تستجيب فيه هذه القواعد لشعارات النخبة وتشاركها في تقديم التضحيات والكفاح من أجل عالم أفضل.

إذن فإنّ قصة التاريخ لا تكتب في كل تفصيلاتها إلا بفضل هذا الحوار المبدع . وقد تكون كلمة حوار غير قادرة على تصوير ما يجري بين الطرفين تماماً . ذلك أن ما يجري بينهما هو ما يجري في الدائرة الكهربائية المغلقة يلتقي فيها الموجب والسالب . وتتم بهذا اللقاء حركة التيار وتبرز قوته المولدة .

السؤال الذي يلفت النظر في عصرنا الراهن هو كما يلي : إلى أي مدى استطاعت النخبة العربية أن تحقق مثل هذا الحوار المبدع مع القواعد الشعبية ؟ .

والجواب عن السؤال هو في مواكب الأحداث التي تواجهنا منذ سنوات عديدة ولا سيما بعد كارثة فلسطين الأولى عام 1948. هذه المواكب كشفت وما تزال تكشف عن الشقة الواسعة القائمة بين الطرفين . وإذا كان لقاء بينهما فهو لقاء يفرضه الخوف المشترك من الخطر الخارجي، لكنه لقاء مفتقد للحمة التواصل والتفاهم والتشابك التصميمي .

إن شيئاً أشبه بحوار الطرشان يجري بين الطرفين منذ جاءت الأفكار والقوى الوافدة الغريبة تطرق أبوابنا وتتغلغل في صفوفنا وتجوس خلال الديار والعقول والأفئدة. الشعارات والمواقف الفكرية والمثل العليا وما يرافقها أو يحملها من مواكب الأدب والعلم والتشريع والنظم تبدو أشبه بالأصوات الناشزة والأصداء الغريبة . إن المشهد الذي يستبينه المراقب المتنبه حين يتتبع مسرحية الكفاح الوطني وصناعة التاريخ العربي الحديث هو مشهد غريب حقاً . فيه تواجه المراقب موجات من الشعارات تتردد على الألسنة وكأنها دفقات هستيرية، ولكن الناس الذين يرددونها لا يلبثون أن يفتقدوا محتواها وأن يشعروا بغربتهم عنها ثم يجتاحهم إحساس عميق بالمرارة والفراغ.

الناس يرددون هذه الشعارات تماماً كما يردد الساحر في قبيلة بدائية عباراته السحرية التي لا تعني شيئاً في الحقيقة . ولكنهم كالساحر في حاجة إلى ما يملأون به فراغهم الروحي . ومن سوء حظهم جميعاً أن إحساسهم بهذا الفراغ الروحي يزداد بالقدر الذي يرددون فيه شعاراتهم وتعاويذهم . وهم رغم إحساسهم بالفراغ يصرون على إعادة الكرة لأنه لا خيار لهم في فعل شيء آخر .

الناس العاديون كهذا الساحر البدائي لا يستطيعون أن يتمردوا على ما تعارفوا عليه من طرائق في التفكير وأساليب في التصرف والسلوك . وكلما زادوا احساساً بالمحالة والتفاهة زادوا رغبة فى البحث عمن يخرجهم من عالم هذه الأساليب وتلك الطرائق . ومشكلة القواعد الشعبية العربية أنها لم تجد في طبقة المثقفين الفئة القادرة على إخراج الناس من دائرتهم المفرغة لأن هذه الطبقة بالذات تفكر بغير عقلها القومي وتتأثر بغير تراثها التاريخي وتنفعل بغير القيم والمثل النابعة من تجارب أمتها القومية . إنها طبقة غريبة ضائعة . ولكنها تصر بدورها على التمسك بعالمها الغريب لأنها لا تعرف غيره ولا تدرك سواه . ومن هنا تسود الفوضى ويشيع التنافس في جوقة الأمة العربية بعامة.

الشعارات القومية وما يرافقها من أفكار ملحقة وانفعالات تابعة لها لم تستطع أن تهز الشخصية العميقة عند جماهير الشعب . لقد بقيت الفئة القائدة منفصلة بهذه الشعارات عن بقية الناس. وكشفت عن ظاهرة الانفصال هذه كل أزمة من الأزمات المصيرية التي واجهت وتواجه العرب حتى اليوم . ونحن لا نأتي بجديد حين نزعم أن ظاهرة الانفصال هذه قد برزت على كل المستويات وفي كل صعيد. ولعلنا لو سلطنا الأضواء على جملة من هذه الأصعدة والمستويات أن نتعرف إلى بعض مظاهر الانفصال هذه .

1) في صعيد الفكر الخالص:

الملاحظ أن الثروة الفكرية التي يتعامل بها المثقفون العرب ويتفاخرون بألوانها هي ثروة مجلوبة من كتب الأجنبي . ولما كان الفكر هو التعبير عن التجربة الإنسانية العميقة الحية فمن الطبيعي جداً أن نعتبر الثروة الفكرية عند العرب ظاهرة غريبة تتحرك أشباحها وظلالها كما تتحرك شخوص اللعب المصنوعة لمسرحيات العرائس . الفلسفات الروحية والمادية وما بينهما من ألوان الفكر وطرائق التأمل كلها بضاعة صنعتها عقول أمم غريبة لم يشاركها المثقفون العرب في معاناة المآسي ومواجهة العقبات والمعضلات التي عرفتها وتعرفها حتى اليوم على امتداد عدد من القرون .

وما هي قيمة الفلسفة إذا لم تكن حصيلة التجربة الحية التي تضطرب بها وفيها عقول الرجال والنساء وتخفق لها أو ضدها قلوبهم ؟ إن ترديدنا لنظريات الوجوديين والماديين والروحيين ومن وراءهم أو قدامهم من المفكرين ممن خرجوا بمزيج غريب لجملة من الفلسفات النظرية المختلفة ، أشبه ما تكون بالكوكتيل الذي أبدعته عبقرية السقاة في حانات السكر والعربدة ، هذا الترديد بالذات يذكرنا بالظلال التافهة التي لا تستمد وجودها من ذاتها بل تتحرك في ضوء حركة الكائن الأصلي القائم وراءها.

في فلسفات الأجنبي مرارة المتخم أو شهوات اليائس أو تشاؤم المادي أو لون آخر من ألوان الحضارة التي استنفد أصحابها كل فنون العيش والتجارب . وإذا كانت الفلسفات جملة من التجارب الأصيلة لشعب من الشعوب فإن من الطبيعي أن تكون ثروتنا الفكرية نحن العرب اليوم ثروة لقيطة ربحناها بجهود غيرنا ونسبناها زوراً لأنفسنا وفاخرنا بها كما تفاخر المرأة بعبقرية الخياط الذي خاط لها ثوبها الجميل .

لقد صنع الغربي فكره بعد أن واجه أزمات دموية قاسية ضد نفسه وتمزقت صفوفه ودفع الثمن غالياً في بحثه عن ذاته ثم خرج من كل هذه التجارب بموقف أو مواقف خاصة به صنعته الأحداث على صورته. وما دام أن المثقف العربي غير قادر على مواجهة التحديات التي تأتيه من كل مكان وتحاصره محاصرة شديدة ملحة ، ما دام أنه غير قادر على مواجهة هذه التحديات بالمعاناة الحية ، والاستعداد الفائق للتضحية ، والنهوض لكل مسؤولية، والاستعانة بعبقرية التراث التي هي وحدها ينبوع شخصيته الأصيلة ، فإنه سيبقى في منطق التاريخ واحدة من هذه العرائس التي تصنع بها مسرحيات الظلال والأشباح الميتة .

إن ما يحتاج إليه المثقف العربي هو أن يستلهم عقيدته وتراثه الثقافي وتلك الأكوام من التجارب الحافلة بالرؤى الفنية في تاريخ أمته وأن يلقي بهذا كله في معركته اليومية التي يواجه فيها تحديات الغزو الفكري الأجنبي . إنّ عليه أن يقرر في أعماق ذاته إسقاط الفكر الغربي باعتباره تجربة غريبة عنه فلا يردده ويتباهى به في المجالس على الطريقة الببغائية .

2) في صعيد الفن الخالص:

ما يجري في صعيد الفن هو نفسه ما يجري في صعيد الفكر . إن المشاهد في صميم انتاجنا الفني يجد أن فيه ازدواجاً في الشخصية . الموسيقى الغربية هي التي تدرس في المعاهد الموسيقية العربية . أما الموسيقى الشرقية أو العربية فإنها ، كما يصرح رجال الموسيقى وصناع اللحن في العالم العربي ، ما تزال حتى اليوم محرومة من مناهج البحث وطرائق التسجيل العصرية . فهي في حقيقتها موسيقى سماعية لم تبلغ مستوى التعقيد العلمي.

الموسيقي الناجح عندنا هو ذاك الذي استغرقته الألحان والموسيقى الغربية . ولذلك فإن الأجنبي لا يلبث حين يستمع إلى موسيقانا العصرية أن يقول : "هذه بضاعتنا ردت إلينا" . وإذاً فليست هناك موسيقى عربية بالمعنى الحديث لأنه ليست هناك أصالة فنية عربية .

وكما هو الشأن في الموسيقى هكذا تتكرر الظاهرة في الفنون التشكيلية والنحت والأدب المنظوم والمنثور . الغربة هي نفسها في كل هذه الفنون . إنها غربة الفنان العربي عن الأساليب والصيغ التي يعبر بها عن القيم الجمالية . غربة يسببها الخوف من الإبداع أو العجز عنه ثم التردد أمام المسؤوليات والتراجع أمام مأساة الحياة الصميمية .

إن آخر صرخات الفنون عندنا هي نفسها آخر هذه الصرخات في عواصم العالم الغربي . والتقليد في هذا الصعيد لا يعني غير شيء واحد هو أن الفنان العربي يرفض الاعتراف بالصدق الفني ومواجهة التجربة الفنية والإيمان بالابداع الأصيل . إنه يحاول أن يركض لاهثاً وراء طرز التعبير المتنوعة في عالم الغرب تماماً كما يفعل المفكر من أبناء بلده . وطبيعي أن يكون هذا الموقف يقفه الفنان العربي آية على ضحالة الحس الفني عنده.

3) في ميدان اللغة :

اللغة وما تحتويه من فكر وفن وحدة لا تتجزأ فإذا فقد فيها كل من الفكر والفن أصالته وإبداعه فقد وجب أن تفقد ثقة أبنائها ، وبالتالي قدرتها على مواجهة التحديات الخارجية . والعربية اليوم إذ تواجه بمحتواها الثقافي نكسات فكرية وفنية وتسجل تراجعاً في جملة ميادين الإنتاج ، فمن الطبيعي جداً أن تفقد جانباً هاماً من شخصيتها وأن تبرد حماسة الناطقين بها وتضعف غيرتهم على سلامتها.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بالنسبة للعربية بل تجاوزه حين أصبح الأدب العامي ، وهو رفض صريح لها ، شيئاً في صميم الإنتاج المزعوم أدباً ووسيلة للتعبير عن أغراض الناثر والشاعر. إن المكتبة العربية في أيامنا هذه حافلة بالألوف من القصص والمسرحيات والدواوين الشعرية العامية يضاف إلى ذلك أن الكتب المؤلفة بعربيتنا الصحيحة تتخللها أعداد لا

تكاد تحصى من الأخطاء النحوية والصرفية ناهيك بالسقم في التعبير والتعثر في اختيار الألفاظ والاضطراب في تحقيق المواءمة بين المبنى والمعنى .

وإذن فإن اللغة العربية لا تجد نفسها اليوم فريسة الفراغ في محتواها الفكري والفني وحسب ، كما لا تواجه الغربة في أقلام الكثير من أبنائها الأدباء فقط ، والتفاهة في خطة المعالجة وطريقة المواجهة لمعضلات الحياة اليومية ، بل هي تعاني فوق هذا وذاك مأساة الاختناق في عصر لا تستقيم النهضة فيه لأصحابه ما لم تكن أدوات النهضة ، واللغة في مقدمتها قوة دافعة حية جديرة بتفجير عبقرية الشعب وتحقيق شخصيته .

فهل بعد هذا كله نجد ما يدهشنا حين نستبين الانفصال بين النخبة من أبناء العربية وبين القواعد الشعبية ؟ وهل يمكن لأمة أن تسترد شخصيتها الأصيلة وتحقق ذاتها بقيادة تفتقد العناصر الأساسية للأصالة وتحقيق الذات؟

لعل أخطر مسؤولية يواجهها الجيل العربي المثقف الصاعد هي تلك التي تتعلق بردم الهوة القائمة بينه وبين جماهير الأمة . إنها المسؤولية التي ترتفع إلى مستوى التاريخ وتستعيد معها الأمة عنصر المبادرة وتنتزع بالتالي دورها التاريخي العظيم.

ليس أمام هذا الجيل غير العودة إلى التراث الإسلامي والاعتراف من ينابيع الفكر والفن العربيين ثم الانطلاق مجدداً من القيم الجمالية والأخلاقية والدينية التي تستقل بها أمة العرب منذ انبلاج الفجر العظيم ، فجر الرسالة المحمدية ، وتدفق مواكب الدعاة في شرق العالم وغربه .